أبو الحسن الندوى

غارة التتار على العالم الإسلامى

وظهور معجزة الإسلام

المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ١٧٠٧ ـ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

غارة التتار وأسبابها الحقيقية فى ضوء القرآن :

واجه العالم الاسلامى فى القرن السابع الهجرى كارثة يندر نظيرها فى تاريخ العالم ، وكادت تقضى هذه الكارثة على شخصية العالم الاسلامى ، وهو زحف الوحوش التتار الذين تقدموا نحو الشرق كجراد منتشر ، وسيطروا على العالم الاسلامى كله .

والمعروف أن السبب فى هذه الكارثة ، هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين محمد خوارزم ، وذلك أنه أمر بقتل التجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة ، ولما ارسل اليه جنكيز خان سفيرا يسأله عن سبب قتل التجار ، قتله أيضا ، فاشتعل جنكيز خان غضبا ، وقام بحملة هوجاء على مملكة خوارزم شاه ، ثم على عالم الاسلام كله .

ولكن اذا تدبرنا فى ضوء ذلك القانون العام الخالد لنتائج الأعمال والأخلاق ، وازدهار الأمم وانحطاطها الذى أشار اليه القرآن ، ولاسيما ما ذكره فى بدء سورة الاسراء من تدهور بنى اسرائيل وافسادهم فى

---

(١) فصل كتبه المؤلف فى « أردو » لكتابه « تاريخ دعوة وعزيمة » ونقل أكثره الاستاذ سعيد الأعظمى الى العربية .

الأرض ، وعلوهم وتمردهم وما جر ذلك الى زحف الملوك الظالمين ، وتسلطهم على بنى اسرائيل وخراب المسجد الأقصى ، يبدو لنا ان السبب الحقيقى فى هذه الفتنة الكبرى ، والمحنة التى أصيب بها العالم الاسلامى ، ليس أن يقترف ملك او حاكم من خطأ فى التدبير والسياسة ، فيتدفق سيل عرم من المحن والبلاء ، ويفاجىء العالم الاسلامى ، وتصاب الأمة الاسلامية بهذه الفتنة العمياء ـ التى لم تكن تتوقعها ولا تستحقها ـ لمجرد أن يخطىء فرد من أفرادها .

اذا حملنا نبراس القرآن فى يدنا ، واستعرضنا اوضاع المسلمين الخلقية والدينية ، والمدنية والسياسية فى ذلك العصر تحقق لنا كالشمس فى رابعة النهار ، أن هذه الحادثة المشئومة لم تكن مفاجأة ، وانما هناك أسباب اكثر عمقا وأصالة مما ظنه الناس وذكروه ، ولكى نبحث عن هذه الأسباب العميقة الأصيلة يجب ان نتأخر الى سنين عديدة من وقوع هذه الكارثة ، وندرس باجمال أوضاع الدول الاسلامية ومراكز الثقافة والمدنية والمجتمع فى ذلك العصر .

اوضاع مركز الخلافة والعالم العربى فى هذا العصر :

ان المملكة الأيوبية توزعت بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٨٩ هـ بين أولاده وأفراد أسرته ، ولكن هؤلاء لم يستخدموا مؤهلاتهم وكفاءاتهم فى أداء هذه الأمانة التى آلت اليهم ، شأن كثير من

اولاد الولاة ، واولى العزم من الحكام ، فقد ظل الصراع قائما بينهم الى مدة طويلة ، حتى أن بعضهم لم يتلكأوا فى الاستعانة بالصليبيين بتدبير المؤامرة ضد اخوانهم وأصحابهم ، وقد أنتج هذا الوضع الشاذ اضطرابا سياسيا ، وانحلالا خلقيا ، وفوضى فى سائر الولايات التابعة لهذه المملكة ، وكان الناس يعيشون فى جو من القلق والخوف .

هذا وكانت الغارة الصليبية الأفرنجية تتعاقب على تلك الحواضر الاسلامية ، التى كان السلطان صلاح الدين قد استردها بعد تضحيات ضخمة ، وقد فشت أمراض واوبئة ومجاعات شديدة نتيجة لهذا الانحطاط الخلقى ، والانحراف الادارى ، وفى سنة ٥٩٧ هـ حدثت مجاعة فى مصر فما فاض فيها النيل ، وتزلزلت ارض مصر بمنازعات الملكين العادل والأفضل ، حتى اشتد الغلاء بأرض مصر ، فهلك خلق كثير جدا من الفقراء والأغنياء ، ثم أعقبه فناء عظيم حتى حكى الشيخ ابو شامة فى الذيل :

« ان العادل كفن من ماله فى مدة شهر من هذه السنة نحوا من مائتى ألف وعشرين الف ميت ، واكلت الكلاب والميتات فيها بمصر ، واكل من الصغار والأطفال خلق كثير ، يشوى الصغير والداه ويأكلانه ، وكثر هذا فى الناس جدا حتى صار لا ينكر بينهم ،

فلما فرغت الأطفال والميتات غلب القوى الضعيف فذبحه وأكله (١) » .

واستمرت هذه الحال وفقا لسنة الله فى الأرض ، وظلت الانذارات السماوية ، والأحداث الجسام تحذر الناس ، وكانت كفيلة بأن تبعث الناس على التوبة والانابة الى الله ، واصلاح أحوالهم « وحدثت فى نفس هذه السنة زلزلة عظيمة ابتدات من بلاد الشام الى الجزيرة والروم والعراق .. واخربت محال كثيرة من طرابلس ونابلس ، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامراء ، ومات بها وبقراها ثلاثون الفا تحت الردم .. ومات امم لا يحصون ولا يعدون ، حتى قال صاحب « مرآة الزمان » : أنه مات فى هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة ألف انسان قتلا تحتها (٢) والله اعلم .

هذا ، وقد تفاقم الشر فى مركز الخلافة (دار السلام بغداد) ، وسيطرت عليه مظاهر الأبهة الملوكية والسلطان الأعمى ، وتغلغل نفوذ الخدم والحشم فى قصور الخلفاء ، وبلغت الثروة والمدنية ذروتهما ، ولا يمكن أن نتصور ما كان يمتلكه الخدم والمماليك الذين كانوا لدى الخلفاء من المال والعقار .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦ .
(٢) أيضا ص ٢٧ .

ويكفى أن نذكر على سبيل المثال ، أن علاء الدين الطبرسى الظاهرى ، وهو ممن اشتراهم الخليفة الظاهر ، كان يحصل له من أملاكه التى استجدها نحو ثلاث مائة ألف دينار سنويا ، وكانت له دار لم تكن ببغداد مثلها ، وكذلك مجاهد الدين ايبك الدويدار المستنصرى ، وقد ملك جزيل الأموال من العين ، والرقيق ، والدواب ، والعقار ، والبساتين والضياع ، ويتعذر وصف ما انفقه من قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، والجواهر التى جهز بها أولاده وبناته فى ليالى الزفاف ، كما أن الفراش الصلاح عبد الغنى بن فاخر المتوفى ٦٤٨ هـ ، وكان شيخ الفراشين بدار الخلافة ، كان يعيش مع خلوه من العلم عيشة الملوك ، بينما كان مدرسو المدرسة المستنصرية فى هذا العصر وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يدرسون فى أكبر جامعة اسلامية فيها ، لا يتقاضى الواحد منهم أكثر من ١٢ دينارا شهريا .

وبجانب ذلك نجد أن ٤٠٠٠ دينار ينثرها خادم للشرابى على مجد الدين ايبك المستنصرى ، المعروف بالدويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأن ٣٠٠٠ دينار أعطاها الشرابى للأشخاص الثلاثة الذين أتوا بطائر من الموصل .

ولكن ندرك مدى نفوذ هذه المظاهر الكاذبة ، والتظاهر بالفخفخة والأبهة الملوكية يجب أن نعرف أن

المواكب التى كانت تخرج فى مناسبات العيد والتتويج كانت تشغل الناس ، حتى انهم كانوا يتناسون انفسهم، ويتشاغلون عن اداء الصلوات ، ونستطيع أن نقيس ذلك بالموكب الملكى ، الذى خرج يوم عيد الفطر سنة ٦٤٠ هـ استمر الى الليل ، وصلى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء (١) ، وذكر فى « المسجد المسبوك » أن العساكر فى عاشر ذى الحجة سنة ٦٤٤ هـ خرجوا الى ظاهر البلد ، وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس ، وأما تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرات عديدة ، فمن الأمور المألوفة ، وكذلك تقبيل اليد وعتبة باب النوبى ، وحافر الخيل والأرض والرغام .

« وقد تميز هذا العصر بكثرة المصادرات ، وتفشى الرشوة وعزل كبار الموظفين ، والقاء القبض عليهم ، وبيع ممتلكاتهم ، وتفاقم امر الباطنية والشطار والعيارين ، واشتداد النزاع الطائفى والتفكك الخلقى ، والانصراف الى الملاهى والقيان والتكاثر فى الأموال » (٢) .

---

(١) الحوادث الجامعة أخبار سنة ٦٤٠ هـ .

(٢) استفدنا فى هذا الفصل من مقال « عصر الشرابى ببغداد » للاستاذ ناجى معروف المنشور فى مجلة « الاقلام » عدد محرم سنة ٨٦ هـ .

وفى نفس هذه الأيام كان التتر يعبشون بكرامة فارس وتركستان ، ويأتون عليهما من كل جانب وكانت ابصارهم شاخصة الى بغداد ، اكبر مركز اسلامى فى ذلك العهد ، يتحدث المؤرخ الشهير ابن كثير عن استهلال سنة ٦٢٦ هـ بما يأتى :

« استهلت هذه السنة وملوك بنى أيوب مفترقون، مختلفون » ، وظلت بغداد دار الخلافة الاسلامية مركزا للاضطراب والفساد ، ولم يتمكن الناس من السفر للحج ، ولا استطاع الخليفة تغيير كسوة الكعبة الشريفة ، التى قد جرت عادة خلفاء الاسلام من قديم بتغييرها ، بين ٦٤٠ هـ و ٦٤٣ هـ ، وبقيت جدران الكعبة عارية عن الكسوة الى ٢١ يوما ، فتشاءم به الناس .

فى سنة ٥٧٥ هـ جلس الخليفة الناصر لدين الله على عرش الخلافة ، وطالت أيام خلافته الى اكثر من ٤٦ سنة ، وهى مدة طويلة لم تتيسر لأحد من الخلفاء العباسيين ، ولكنها اظلم عهد فى تاريخ الخلافة العباسية، وقد ذمه المؤرخون وتناولوا أعماله واخلاقه بالنقد اللاذع ، يتحدث عنه المؤرخ ابن الأثير ، فيقول :

« وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما ، فخرب فى ايامه العراق وتفرق أهله فى البلاد ، واخذ أملاكهم وأموالهم ، وكان يفعل الشيء وضده ، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها فى رمضان

فبقيت مـدة ثم قطع ذلك ، ثم عمـل دور الضـيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها ، واطلق بعض المكوس التى جددها ببغداد خاصة ، ثم أعادها ، وجعل جل همه فى رمى البندق والطيـور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطل الفتوة فى البلاد جميعها ، الا يلبس منه سراويل يدعى اليـه ، وليس كثـير مـن الملوك منـه سراويلات الفتوة ، فأجابه الناس بالعراق وغيره الى ذلك ، فكان غرام الخليفة بهذه الأشـياء مـن أعجب الأمور ، وكان سبب ما ينسبه العجم اليه صحيحا من انه هـو الذى أطمع التتـر فى البـلاد وراسـلهم فى ذلك (١) » .

توفى الخليفة النـاصر لدين الله سـنة ٦٢٢ هـ ، وخلفه المستنصر بالله ، وكان جميل الصورة حسن السريرة جيد السيرة كثير الصدقات والبر والصلات ، محسنا الى الرعية بكل ما يقدر عليه ، فكان نموذجا للخلفاء الصـالحين فى كثير من خصائصـه وعاداته ، ولـكنه ـ مع الأسف ـ لم يجـد فرصـة للتنظيـم والاصـلاح ، وخلفه ولده المسـتعصم بالله فى سـنة ٦٤٠ هـ وكان المستعصم صحيح العقيدة متدينا يظهر عليه خشوع وانابة لم ينقل عنه أنه عصى الله بفمه ، ولا بفرجه ، ولا شرب مسكرا ، ولا أخل بصيام الاثنين والخميس من كل شهر ، وكان يصوم شهر رجب من

(١) تاريخ الكامل ج ١٢ ص ١٨١ .

كل سنة ، وكان يحفظ القرآن مواظبا على الصلوات فى أوقاتها الا ان المستعصم لم يكن بصيرا بتدبير الملك على ما رواه ابن كثير ، وكان فيه لين وعدم تيقظ ، ومحبة للمال وجمعه .

وفى سنة ٦٤٢ هـ استوزر الخليفة المستعصم بالله محمد بن العلقمى ، ولكنه لم يكن وزير صدق ولا مرضى الطريقة ، فاضطرب نظام الحكومة ، ولما وقعت الحرب العظيمة بين اهل السنة والرافضة فى سنة ٦٥٥ هـ « نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة ، حتى نهبت دور قرابات الوزير ، فاشتد حنقه على ذلك ، فكان هـذا مما أهاجه على أن دبر على الاسلام وأهله ما وقع من الأمـر الفظيـع الذى لم يؤرخ أبشـع منه منـذ بنيت بغداد » (١) .

وبالرغم من أن التتار كانوا يتقدمون نحو بغداد ، وكان الخطر التتارى يقرع الأبواب ، كانت « جيوش بغداد فى غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقيـة الجيش كلهم قـد صرفوا عـن اقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم فى الأسواق وأبواب المساجد ، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحـزنون على الاسـلام وأهله ، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمى الرافضى » (٢) .

(١، ٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ .

كان المستعصم رجلا صالحا حسن السيرة والفكر، وكان يحرص على اصلاح الأوضاع ورفاهية البلاد ، ولكن فساد الناس واضطرابهم وفساد رجال الحكومة، بلغ مبلغا لا يؤثر فيه الا من رزق الارادة القوية ، والشخصية العبقرية ، ومن يستطيع أن يقف سدا منيعا فى وجه الفساد ، ويتغلب على الأوضاع السيئة ، ولم ينفع فى مثل هذه الحال الا العظماء الذين افتتحوا عهدا جديدا ، واسسوا حكومات جديدة فى التاريخ .

ولقد تكرر فى التاريخ ان آخر أفراد أسرة حاكمة، وآخر حاكم فىمملكة آخذة بالانحطاط كان يتصف بالصلاح والتقوى ، غير ان تلك الأسرة او المملكة كانت قد وصلت الى آخر نقطة من الانحلال والتدهور ، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طفحت ، فلم يكن هنالك من يحول بين الحكومة وبين نهايتها الأليمة التى كان يفرضها قانون السماء ، وتقتضيها طبائع الأشياء ، وشاءت الأقدار أن يعتبر ذلك الرجل الأخير مسؤولا عن نهاية الحكومة فى أسرته الحاكمة بالرغم من انه كان أكثر صلاحا وديانة ، وأحرص على اصلاح الفساد من سلفه الماضين .

وقد كان عدد الصالحين مشتغلين بالعلم والتدريس والعبادة كما كان عدد منهم معتزلين فى الزوايا والمساجد ، ولكن الفساد كان قد استحوذ على طبقة الحكام والمترفين ، يقول المؤرخ ابو الحسن الخزرجى يصف أهل العراق يومئذ :

« واهتموا بالاقطاعات والمكاسب ، وأهملوا النظر فى المصالح الكلية ، واشتغلوا بما لا يجوز من الأمور الدنيوية ، واشتد ظلم العمال ، واشتغلوا بتحصيل الأموال ، والملك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظلم » (١) .

القسم الشرقى من المملكة الاسلامية :

وكان ملوك الخوارزم منفردين بالحكم فى الجزء الشرقى للعالم الاسلامى ، قامت دولتهم ذات الشوكة على أنقاض المملكة السلجوقية فى آخر القرن الخامس الهجرى ، وكان العالم الاسلامى كله خاضعا للحكم الخوارزمى باستثناء مصر والشام ، والعراق والحجاز ، والمنطقة السلجوقية الصغيرة الواقعة فى الشمال الغربى لآسيا الصغرى ، وكان علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ – ٦١٧ هـ) أعظم ملوك الأسرة طموحا ، وأعلاهم همة ، وأكثرهم فتحا وانتصارا ، وهو أكبر ملك مسلم وأقواهم فى عهده ، يتحدث عنه المؤرخ « هيرلد ليمب » فى كتابه « جنكيز خان » فيقول :

« كان السلطان محمد خوارزم شاه متربعا على عرش الملك فى قلب البلاد الاسلامية ، وكانت رقعة ملكه تمتد

(١) مقال الاستاذ ناجى معروف « عصر الشرابى ببغداد » « الاقلام » ع محرم ١٣٨٦ هـ .

من ثغور الهند الى بغداد ، ومن بحر الخوارزم (آرال) الى خليج الفرس ، وكان مسيطرا على الممالك الاسلامية كلها عدا دولة الأتراك السلاجقة الذين انتصروا على الصليبيين ، وأسرة السلاطين من مماليك مصر ، وكان السلطان محمد امبراطورا بالنظر الى مكانته ، وبالرغم من أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله سخط عليه ، ولكنه كان يعترف بقوته ، ان الخليفة فى بغداد بعد ما تجرد عن كل سلطان دنيوى عاد مجرد رمز دينى ، شأن البابوات فى رومة » (١) .

أما المؤرخون العرب ، فانهم لا يشيرون الى موضع ضعف وعيب شخصي كبير فى سلوك محمد خوارزم شاه وأخلاقه ، بل انهم يعترفون بتدينه ، وحسن عقيدته وشجاعته وتصلبه بوجه عام ، ولكن الذى لا خلاف فيه ، أنه بذل جميع مواهبه وطاقاته فى القضاء على الحكومات الاسلامية الصغيرة والكبيرة ، حيثما وجدت فى هذا الجزء الشرقى الواسع انه اضطر السلاجقة الى التأخر والانسحاب الى آخر حدودهم فى جانب ، كما أنه ظل يحارب الغوريين فى الشرق والجنوب فى جانب آخر ، واضطرهم الى الانحصار فى جزء محدود ، وأن خيرة عناصر الفروسية والنضال فى ايران وتركستان ، قد أثخنتها الحروب الطاحنة المتواصلة ، التى لم تكد تنتهى ، فكان الجو الحربى

(١) جنكيزخان ص ١٤٧ .

يسود المدن والأقاليم الخصبة الغنية وعلى مشاعر أهلها فى كل حين ، وقد اجتمعت غنائم البلاد المفتوحة، وحاصلات الأقاليم الخصبة ، وتأنق الصناع فى الصناعات ، وأدوات الزينة ، فبلغت بذلك كله المدنية أوجها ، واجتمعت جميع عوامل الفنى والجدة والرفاهية والانتصارات وما يتبعها من ترف وبطر .

ومن الصعب العسير أن يوجد حديث عن الأدواء الخلقية ، التى كانت تعانيها الحضارة والمجتمع ، فى كتب التاريخ التى تدور حول البلاط الملكى ، والسرائى، ورجال الحكومة ، وان مظنة هذا الحديث هى كتب المشائخ الصوفية ، والمصلحين الاجتماعيين ، وكتب المواعظ ، التى اكتسح معظمها السيل التتارى ، ولا يسعنا أن نحمل ما صرح به المؤرخ المسيحى « هيرلد ليمب » فى كتابه « جنكيز خان » على مجرد التعصب الدينى والمبالغة ، أنه يقول :

« ان العالم الذى كان يعيش فيه المسلمون كان عالم الحرب والجلاد ، وكان لا يخلو من شغف بالغناء والموسيقى ، ومن الطرب والاهتزاز . لكنه رغم هذا الظاهر كان يعيش فى قلق واضطراب ، فكان المماليك والعبيد يحكمون مكان الملوك والسلاطين ، وقد بالغ الناس فى جمع الأموال والثروات ، وقد انتشرت الأدواء الخلقية والمؤامرات السياسية ، وكان زمام الأمور فى يد أولئك الذين كانوا ينهبون الرعية ،

ويترفهون على حسابها ، وكانت حراسة الحرم ، والاشراف على السرائى للخصيان » (١) .

خطأ الملوك الخوارزمية :

وقد صدر عن الملوك الخوارزميين نفس الخطأ الكبير الذى وقع فيه الحكام العرب فى الأندلس ، ولم يعف عنهم قانون المكافأة الألهى ، وذلك انهم بذلوا كل قواهم فى توسيع رقعة الملك ودعمه ، وقمع الخصوم ، ولم يبذلوا أى اهتمام بتبليغ رسالة الاسلام الى ذلك القسم البشرى الذى كان يعيش بجوار حدودهم ، وكان بنفسه عالما مستقلا ، وبصرف النظر عن الدافع الدينى والواجب الاسلامى ، كان مقتضى الحزم السياسى وبعد النظر أن يعنوا بايجاد الانسجام العقائدى مع هذه الدنيا الانسانية الواسعة ، وبذلك يكونون قد أقاموا حولهم سياجا ، يحفظهم عن ذلك الخطر الذى لم يواجههم وحدهم فحسب ، بل اكتسح المسلمين كلهم .

زحف التتار نحو العالم الاسلامى :

فى نفس هذه الأحوال والزمان تقدم التتار بادىء

(١) جنكيز خان ص ١٤٣ .

بدء ، كعقاب الهى بقيادة ملكهم « جنكيز خان » (١) نحو الجزء الشرقى للعالم الاسلامى ، ايران وتركستان حتى وصلوا الى بغداد التى أسلفنا ذكرها ، واخيرا قاموا بتدميرها وابادة أهلها سنة ٦٥٦ هـ ، « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب » (٢)

أن الدافع القريب لهذا الزحف التتارى ، فى عالم الأسباب ، هو أن جنكيز خان بعث الى خوارزم شاه رسولا يقول له : انك تحكم رقعة عريضة كما أننى أملك مملكة واسعة ، فاذا قامت بين المملكتين علاقات تجارية ، وسمح للتجار بتبادل التجارات بين البلدين كان ذلك فى صالح البلدين ، فقبل ذلك خوارزم شاه ، وقامت العلاقات التجارية ، وبدأ التجار يتبادلون اموال التجارة بين البلدين ، ولكن ما الذى حدث بعد ذلك حتى شهد العالم الاسلامى ذلك اليوم المشؤوم الذى يدعى بغارة التتار ؟ ولنقرأ ما كتبه عن ذلك

(١) مبدأ مملكة جنكيز خان سنة ٥٩٥ هـ ، وأول حملة على حكومة خوارزم شاه كانت فى سنة ٦١٦ هـ ، وقد مات جنكيز خان ٦٢٤ هـ ، فقام أبناؤه واحفاده بتحقيق غاياته التى أرادها ، فلما واجهت بغداد الغارة التتارية سنة ٦٥٦ هـ ، كان هولاكو حفيد جنكيز خان قائد القوات التتارية وأميرها .

(٢) سورة الأنفال ٢٥ .

المؤرخ الغربى « هيرلد ليمب » ويصدقه تماما ما جاء فى التاريخ الاسلامى ، انه يقول :

« انفصمت العلاقات التجارية التى أقامها جنكيز خان بين البلدين فجأة ، وكان السبب فى ذلك أن قافلة من التجار كانت متوجهة من « قراقورم » الى الغرب ، فلما وصلت الى « اترار » تعرض لها حاكمها الذى كان يدعى باينل جق وأسر رجالها ، واخبر ملكه خوارزم شاه بذلك ، وقال أن هذه القافلة لا تخلو من جواسيس جنكيز خان ، وكان هذا الخبر مما يؤيده العقل .

وما ان وصل الخبر الى خوارزم شاه حتى أمره بقتل التجار كلهم دون أن يفكر فى هذه القضية ، ويتأنى فى اصدار الأمر ، ونفذ أمره بقتل التجار الذين جاءوا من قراقورم ، ولما علم بذلك جنكيز خان ، أرسل سفراءه الى خوارزم شاه يشكو اليه ما حدث مع هؤلاء التجار ، وانتهز خوارزم شاه الفرصة فقتل رئيس السفراء ، وأمر باحراق لحى الباقين ، الذين رجعوا الى جنكيز خان وقصوا عليه القصة وفور سماع هذه القصة صعد جنكيز خان على جبل فى « صحراء الجوبى » ليفكر فى القضية ، لأن قتل رسول المغول كان جريمة لاتغتفر . كان لابد من الانتصار لها حسب ما جرت عادة المغول فى مثل هذه الأمور .

واعلن جنكيز خان قائلا : « اذا كانت السماء

لا تحتمل وجود شمسين ، فان الأرض كذلك لا تحتمل وجود ملكين » (١) .

الجزء الشرقى للعالم الاسلامى بين النار والدمار :

وقد ابتدأ التتار ببخارى واتوا عليها من كل جانب ، فدمروها حتى عادت كومة من تراب ، ثم توجهوا الى سمرقند واحرقوها وابادوا أهلها ، ولقيت نفس المصير المدن الشهيرة للعالم الاسلامى كهمدان وزنجان ، وقزوين ، ومرو ، ونيسابور ، وخوارزم ، أما خوارزم شاه الذى كان يعتبر الملك الوحيد للعالم الاسلامى وأقوى الملوك فى عصره ، فكان يعيش فى خوف وهلع ، وتنقل وارتحال ، يبحث عنه التتار ويتعقبونه حتى توفى فى جزيرة مجهولة .

كان خوارزم شاه قد ضم ولايات فارس وتركستان المسلمة ودولهما المستقلة الى مملكته ، فلما هزمه التتار لم يكن هناك من يقاومهم فى هذا الجزء الشرقى ، وقد دخل رعب التتار فى قلوب المسلمين ، الى حد أن احد التتار دخل بعض الأحيان فى سكة من سكك مدينة حيث وجد مائة رجل من المسلمين فقتلهم كلهم وأتى على آخرهم دون أن ينجرا احد منهم لمقاومته .

(١) جنكيز خان ص ١٤٧ .

وذات مرة دخلت امراة تاتارية بيتا متزيية بزى الرجال ، وقتلت جميع أفراد الأسرة ، وقد عرف احد المسجونين الذى كان معها انها امراة فقتلها ، وقد حدث بعض الأحيان أن تاتاريا أسر مسلما وقال له ضع راسك على هذا الحجر حتى آتى بالخنجر فأذبحك ، وخضع له المسلم ولم يسعه أن يبرح مكانه ذاك ، ثم اتى التتارى بالخنجر من المدينة وذبحه به (١) » .

كانت غارة التتار فتنة عظيمة ، ومحنة كبيرة ، هزت العالم الاسلامى هزا عنيفا ، وتركت المسلمين مبهوتين مشدوهين ، واستولى الرعب والخوف على العالم الاسلامى من اقصاه الى اقصاه ، وغلب على الناس اليأس والتشاؤم ، فكانوا يعتبرون التتار بلاء سماويا ، ومقاومتهم مستحيلة ، وانهزامهم فوق القياس ، حتى سار المثل : « اذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تصدق » فكل بلاد أو دولة توجهوا اليها عرف انها ابيدت وخربت ، ولم يبق فيها شيء من مقدسات المسلمين الا وانتهكت حرمتها ، فكان اتجاه التتار الى جهة يرادف معنى التدمير والابادة ، والذلة ، وانتهاك الأعراض ،ولا شك أن العالم الاسلامى كله ولاسيما الجزء الشرقى منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء على بكرة أبيه ، أن المؤرخ يشتغل

(١) من اراد التفصيل فيرجع الى الكامل لابن الأثير ج ١٢ ، ودائرة المعارف للبستانى ج ٦ مادة « تتر » .

بتسجيل كل لون من الوان الأحداث والوقائع ، وتمر به مناظر كثيرة لابادة الأمم والبلدان حتى يتعود احتمال كل ذلك ، فيجرى قلمه بتسجيل هذه الحوادث من غير أن يرق لها قلبه ، وتدمع لها عينه ، ولكن المؤرخ الشهير ابن الأثير لم يتمكن من اخفاء شعوره الجريح وتألمه النفسى ، حينما وصل الى ذكر حادث التتار ، انه يقول :

« لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر اخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ؟ ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت امى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، الا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رايت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا ، فنقول هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها وعمت الخلائق ، وخصت المسلمين، فلو قال قائل أن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا مايدانيها ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة ، الي أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا يأجوج ومأجوج ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ، فانا لله وانا

اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح » (١) .

ويقول مؤلف « مرصاد العباد » : الذى شهد هذه الوقعة بعينه وما دار فى مولده « الرى » وموطنه « همدان » من حوادث فظيعة ومن التخريب والتدمير :

« استولى الجيش التتارى ـ خذلهم الله ودمرهم ـ سنة ٦١٨ هـ على بلاد الاسلام ، لا يعرف نظير لما قام به هؤلاء الوحوش من الفتنة والافساد ، والقتل والهدم والاحراق وما ظهر من اولئك الملاعين من فظائع تقشعر منها الجلود فى اى عصر من عصور التاريخ ، لا فى الاسلام ولا فى الجاهلية ، فقد قتلوا واسروا فى « رى » وحدها التى هى مولدى أكثر من سبع مائة إلف مسلم ، ان الفتنة التى اثاروها فى العالم الاسلامى ، والمصيبة التى انزلوها على المسلمين لا تسع الكلمات أن تصورها ، وهذه الحادثة أغنى من أن تشرح للناس .

وعياذا بالله ، اذا لم تتحرك حمية الاسلام وغيرته فى ملوك المسلمين وسلاطينهم ، ولم يذكروا انهم مسؤولون عن الأمة لقوله صلى الله عليه وسلم : « الأمير راع على رعيته وهو مسئول عنها » واذا لم

---

(١) الكامل لابن الاثير ج ١٢ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

تنبعث فيهم اريحيتهم ورجولتهم لكى يتحدوا على كلمة واحدة ، وينقادوا لما امرهم الله به فى قوله : « **انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله** » واذا لم يستعدوا لبذل النفس والمال والملك لكى يدفعوا هذه الفتنة ، فان ذلك كله يدل على ان المسلمين سيفاجئهم الذل والنكسة ، وترتمى معظم بلاد الاسلام فى أحضان الكفر ، واخشى ان المسلمين الذين كانوا لا يحملون الا الاسم ، سيفقدون الاسم والرسم كليهما نتيجة لما ندعيه ولا نعمل به » (١) .

صاعقة نزلت على العالم كله :

ولم يكن العالم الاسلامى وحده مصابا بهذه الفتنة التتارية ، وانما العالم المتمدن كله كان متوجلا من هذه الغارة ، وقد تفشى الذعر والخوف فى الأمكنة التى لم يكن يرجى فيها وصول التتار ، يقول « جبن » فى كتابه الشهير « تاريخ انحطاط رومة » :

« حينما اطلع سكان السويد على أخبار غارة التتار عن طريق روسيا ، تسلط عليهم من الذعر والخوف ما منعهم عن الخروج الى سواحل انجلترا لصيد الأسماك ، وقد كان ذلك عادة متبعة لديهم » .

---

(١) مرصاد العباد (المخطوط ، المحفوظ فى مكتبة ندوة العلماء) ص ٨ .

وقد تصـــدى المؤلفون « لتاريخ العهـــد المتوسط للكيمبردج » بذكر صدام المغول الشـــديد الذى كان سببه جنكيز خان بما يلى :

« لم يكن فى وسع الانسان أن يسد سيل المغول ، فقد تغلبوا على جميع أخطارَ الصحارى والغابات ، ولم يقف فى وجههم اى شىء من الجبال والبحار ، وشدائد الطقوس والفصول ، والقحط والأوبئة ، ولم يكونوا يخافون اى خطر ولا مانع ، ولا كانت هناك قلعة ترد هجومهم ولا كانت تؤثر فيهم استغاثة من مظلوم .. نحن نواجه هنا فى مجال التاريخ قوة جديدة ، قامت بتقديم الحل السريع لكثير من القضايا المعقدة السياسية والوطنية ، التى كانت تشغل العقول فى ذلك العصر ، وقضت عليهـا كما تقضى الصـاعقة التى تنزل مـن السماء على كل ما تصيبه فى الأرض ، وقد كانت هذه القضايا الوطنية والسياسية بالغة فى تعقدها الى حد لم يكن يرجى منه الخلاص لولا أن وقعت عليها هـذه النازلة » .

« ان ظهور هذه القوة الجديدة فى تاريخ العالم ، أعنى قدرة رجـل واحد على تغيـير حضـارة النوع البشرى ، يبتدىء من جنكيز خان ، وينتهى الى حفيده قوبيـلائى خان الذى بدت فى عهـده آثار الفـرقة والانشـقاق فى مملـكة المغول المتحـدة المتماسـكة ،

والحقيقة ان التاريخ لم يشهد الى الآن قوة تشبه قوة هؤلاء المغول » (١) .

تدمير بغداد :

وأخيرا دخل هؤلاء الوحوش بعدما خضبوا ارض العالم الاسلامى كله بدماء أهله ، وأتوا عليه فى بغـداد دار الخلافة الاسلامية ومركز العلم والمدنية الأكبر فى ذلك العصر بقيـادة حفيـده هولاكوخان ، ودمروها تدميرا ، ولاشك أن تفاصيل قتل المسلمين فى بغـداد وتدميرها طويلة ومؤلمة ، ونستطيع أن نقدر مدى هذه الوقعة العظيمة ببيـان بعض المؤرخين الذين شـهدوا آثارها بأعينهم ، وسمعوا تفاصيلها من مشـاهديها ، يقول المؤرخ ابن كثير :

« وما زال السيف يقتل اهلها أربعين يوما ، ولما انقضى الأمر المقدور ، وانقضت الأربعون يوما ، بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد ، الا الشاذ من الناس ، والقتلى فى الطرقات كأنها التلول ، وقـد سـقط عليهم المطر فتغيرت صـورهم ، وانتنت من جيفهم البلد ، وتغير الهواء ، فحصـل بسـببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى فى الهواء الى بلاد الشام ، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء » (٢) .

(١) مأخوذ من « جنكيز خان » ص ١٤٧ .
(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٠٣ .

ويقول الشيخ تاج الدين السبكى :

« فأنزل (هولاكو) الخليفة (المستعصم) فى خيمة ، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد فضربت أعناقهم ، وصار كذلك يخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم، ثم طلب حاشية الخليفة فضرب أعناق الجميع ، ثم طلب أولاده فضرب أعناقهم ، وأما الخليفة فقيل لهولاكو أن هذا أن أريق دمه تظلم الدنيا ويكون سبب خراب ديارك ، فقام نصير الدين الطوسى (١) وقال : يقتل ولا يراق دمه ، فقيل ان الخليفة غم فى بساط ، وقيل رفسوه حتى مات » .

---

(١) يصدق ذلك ما قاله الدكتور مدرس رضوى فى كتابه « أخبار وآثار خواجة نصير الدين طوسى » الذى نشرته جامعة طهران ، فقد أعتبر المؤلف نصير الدين الطوسى مسؤولا عن هذه الوقعة ، أنه يقول :

« ان مكيدة الطوسى السياسية التى نجحت أخيرا هى أنه أثار هولاكو خان على استئصال الخلافة العباسية ، وتدمير القصر الملكى ، وقد كان هولاكو مأمورا من قبل أخيه منكوقا آن ، بالقضاء على الخلافة العباسية بعد استئصال الباطنية .

ان هولاكو بعث ألى الخليفة المستعصم بالله الأمر بالطاعة ، واستمرت المكاتبة على ذلك ، ولكن دون جدوى ، وأخيرا استشار هولاكو زملاءه ، وكانت المغول يعتقدون بسعد النجوم ونحسها ، فلما أخبره منجم سنى المعروف بحسام الدين ألذى كان ملازما لبلاطه بأن=

واستمر القتل ببغداد بضعة وثلاثين يوما ، ولم ينج الا من اختفى : وقيل ان هولاكو أمر بعد ذلك بعد القتلى ، فكانوا ألف ألف وثمان مائة ألف ، ثم طلبت النصارى أن يقع الجهر بشرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، وأن يفعل معهم المسلمون ذلك فى شهر رمضان ، وأريقت الخمور فى المساجد والجوامع ، ومنع المسلمون من الاعلان بالأذان .. هذه بغداد لم تكن دار كفر قط ، وجرى عليها هذا الذى لم يقع قط منذ قامت الدنيا مثله » (١) .

= هذه ساعة نحس للغارة على بغداد ، وكلما تصدى ملك للاستيلاء على الخلافة فى مثل هذه الساعة أخفق فى ارادته ، وأصيب ببلاء ، فانك أيها الملك اذا أبيت الا أن تغير ، ينقطع المطر ، وتعم الزلازل والعواصف ، ويخرب العالم ، وأشد من كل ذلك أن الملك (منكوقا آن) يهلك ، فلما سمع بذلك هولاكو تردد هنيهة ، واستطلع رأى الطوسى وقال : « ماذا تقول عن مصيرنا اذا أغرنا الآن على بغداد » فقال له الطوسى : أن الغارة على بغداد لا تؤول الا أنك ستحتل محل الخليفة ، ثم دعا هولاكو المنجم حسام الدين وطلب منهما المناظرة حول هذا الموضوع ، فقال له الطوسى : لقد قتل آلاف من الصحابة رضى الله عنهم ولم يظهر فساد ، واذا كان هذا مما يخص العباسيين ، فانظر الى طاهر الذى قاتل الأمين لما أمره المأمون بذلك وقتله ، وقتل المتوكل على الله أولاده وغلمانه ، وقتل المنتصر والمعتضد الأمراء والغلمان ولكن لم يحدث هناك زلزلة ولا طوفان .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ١١٤ ــ ١١٥ .

وقد ظلت بغداد ، على علاتها ومواضع ضعفها أكبر مدينة للعالم الاسلامى ، ومركز العلوم والفنون ، ومهد العلماء والصالحين ، وكانت موضع فخر المسلمين لكونها دار الخلافة ، فاضطرب لتدميرها المسلمون كلهم وبكوا عليها ، وقد قرض الشيخ مصلح الدين سعدى (٢) رحمه الله ، الذى أقام فى بغداد كطالب ، وشهد بهاءها وجمالها قصيدة رثاء تنطق عن قلوب المسلمين الجريحة ، وشعورهم المكلوم فى ذلك الوقت ، ننقل فيما يلى ترجمة لعدة أبيات منها يقول :

« ان للسماء كل الحق ان تمطر دما على الأرض لما أصاب مملكة الخليفة المستعصم من زوال وفناء ، اذا كانت القيامة حقا واقعا يا محمد عليه الصلاة والسلام ، فاحسر عن وجهك الرداء وشاهد القيامة بين الخلق اليوم ، لم يدر بخلد أى انسان ابدا ان حوادث الدهر تأتى بما أتت به اليوم ، افتح بصرك يا من شهدت عظمة البيت الحرام لتنظر أن الملوك دفنوا تحت التراب ، واحتل محلهم المغول والخاقان ، أريقت دماء أبناء عم النبى صلى الله عليه وسلم على تلك الأرض ، التى كانت الملوك الكبار يخرون عليها ركعا سجدا ، واصبحت دجلة تزبد بدم أهلها ، وهى

(٢) أحد أئمة الشعر الفارسى ، صاحب كتابى « كلستان » ، « وبوستان » الخالدين فى المكتبة العالمية .

تعجن التراب فى نخل بطحاء بالدماء ، ان وجه هذا النهر تغير وامتقع لونه من هذه الوقعة الهائلة وبدت التجاعيد فى هذا الوجه ، ان النياحة لا تجدر على تراب هؤلاء الشهداء ، فان أقل جزاء يستحقونه هى جنة الفردوس ، ولكن الواجب الدينى ، وصلة الحب والعاطفة تجعل قلب المحب يعيش فى لوعة الفراق » (١) .

التتار فى الشام :

توجه التتار نحو حلب الشهباء بعد بغداد ، وعاملوها معاملة بغداد كما ذكر ابن كثير ، ثم تقدموا الى دمشق واستولوا عليها فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٥٨ هـ .

وقعة عين جالوت وتراجع التتار عن مصر :

وكان التتار متوجهين نحو مصر بعد الشام بحكم الطبيعة ، وكانت مصر وحدها التى لم تصبها ويلات التتار ، وقد كان ملك مصر المظفر سيف الدين قطز قد تفرس أن التتار يزحفون الى مصر بعد الشام ، وعند ذلك يصعب التخلص من وطأتهم ، فرأى ان يخرج من مصر بالجنود ويشن عليهم الهجوم فى نفس الشام ، حتى وقعت الحرب بين عساكر مصر

(١) كليات سعدى .

الاسلامية ، والتتار فى عين جالوت يوم ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، وانهزم التتار شر هزيمة بخلاف ما سبق لهم من الحروب ، فخرجوا منها هاربين ، وتعاقبهم الجنود المصريون فقتلوهم وأسروا منهم عددا كبيرا ، يقول العلامة السيوطى فى كتابه « تاريخ الخلفاء » :

« فهزم التتار شر هزيمة ،وانتصر المسلمون ولله الحمد ، وقتل من التتار مقتلة عظيمة ، وولوا الأدبار ، وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينهبونهم » (١) .

وهزمهم الملك الظاهر بيبرس بعد انهزامهم فى عين جالوت مرات عديدة ، وأخرجهم من أرض الشام وطردهم منها ، حتى بطل المثل السائر « اذا قيل لك أن التتار انهزموا فلا تصدق » .

انتشار الاسلام فى التتار :

وقبل أن ينجرف العالم الاسلامى مع هذا السيل الجارف العنيد ،وينطمس معالمه وملامحه ، (كما كان المشاهد الملموس عند ذوى البصيرة والخبرة من المؤرخين المسلمين فى ذلك الحين) بدأت دعوة الاسلام تنتشر فجأة فى هذا الشعب ، ويتحقق على أيدى دعاة الاسلام ما لم يتحقق بالأسنة والرماح ، وبطش

(١) تاريخ الخلفاء ص ٤٢٥ .

السلاطين والملوك ، وبدأ الاسلام يتسرب فى نفوس أعدائه ، ويأخذ بمجامع قلوبهم ، أن خضوع هذا الشعب الذى قهر المسلمين أمام الاسلام من اغرب الوقائع والأحداث فى التاريخ ، فان هجوم التتر على العالم الاسلامى كالجراد المنتشر ، واخضاع العالم الاسلامى كله ، ليس من الغريب المدهش كما يبدو فى الظاهر ، فان عالم الاسلام فى القرن السابع كان بدوره مصابا بتلك الأمراض والأسقام ، التى تلحق الأمم عامة فى أوج حضارتها وشوكتها ، بالعكس من التتر ، ذلك الشعب القوى الأبى الذى نشأ على حياة البداوة ، والهمجية والضراوة ، ولكن الغريب المدهش أن هذا الشعب خضع للمسلمين المفتوحين المقهورين ، واعتنق دينهم فى أوج قوته ، وذروة سلطانه ، ذلك الدين الذى فقد كثيرا من سلطانه السياسى والمادى آنذاك ، وكان أتباعه موضع سخرية واحتقار فى نظر التتار .

وقد أبدى « أرنولد » استغرابه فى هذا الصدد فى كتابه المشهور Preaching of Islam. « الدعوة الى الاسلام » حيث قال :

« ولكن لم يكن بد من أن ينهض الاسلام من تحت انقاض عظمته الأولى ، واطلال مجده التالد ، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل فى ذلك الى نشاط الدعاة من المسلمين ، الذين كانوا

يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين ، كانا يحاولان احراز قصب السبق فى ذلك المضمار ، وليس هناك فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والاسلام ، كل ديانة تنافس الأخرى ، لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة ، الذين داسوا بأقدامهم رقاب اهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الأقطار والأقاليم » (١) .

« ويظهر أنه لم يكن من اليسير أن منافسة الاسلام فىمستهل الحكم المغولى لغيره من الديانات القوية ، كالبوذية والمسيحية كانت عملا بعيد المنال ، اذ ان المسلمين كانوا قد قاسوا اكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذى صحب غارات المغول ، وأن معظم هذه المدن التى كانت حتى ذلك الحين مجمع السلطة الدينية وكعبة العلم فى الاسلام فى القارة الآسيوية ، قد أصبح معظمها أطلالا دارسة ، حتى أن الفقهاء وأئمة الدين

---

(١) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٥٠ (ترجمة جماعة من الاساتذة المصريين) .

الأتقياء ، كان نصيبهم القتل او الأسر (١) ، وكان من بين حكام المغول الذين عرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة من يظهر الكراهية للدين الاسلامى على درجات متفاوتة ، فقد أمر جنكيز خان بقتل كل من يذبح الحيوانات على النحو الذى قرره الاسلام ، ثم سار على نهجه قوبيلائى ، فعين مكافآت لكل من دل على من يذبح بهذه الطريقة ، واضطهد المسلمين اضطهادا عنيفا دام سبع سنين ، حتى أن كثيرا من المعدمين وجدوا فى سن ذلك القانون فرصة لجمع الثروة ، وأتهم الأرقاء مواليهم بهذه التهمة لكى يحصلوا على حريتهم (٢) وقد عانى المسلمون أقسى ضروب العسف والشدة فى عهد كيوك (١٢٤٦ — ١٢٤٨ م) .

« وقد اضطهد ارغون (١٢٨٤ — ١٢٩١ م) رابع

(١،٢) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التى لقيها هؤلاء ، أن رائفى الخيول من أهالى الصين ، كانوا اذا عرضوا اشباحا أظهروا البشر والحبور فى صلف وأعجاب بعرض صورة تمثل رجلا مسنا ذا لحية بيضاء يجر حصان قد ربط ذيله برقبة هذا الرجل ، وانما هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان المغول فى معاملتهم للمسلمين .

Howorth, vol. i. p. 159.
Howorth, vol. i. p. 165.
Deguignes, vol. III p. 265.

ايلخانات المغول فى فارس ، المسلمين فى بلاده ، وصرفوم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية ، كما حرم عليهم الظهور فى بلاطه (١) ، وعلى الرغم من جميع المصاعب ، اذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة (٢)آخر الأمر لدين هذه الشعوب التى ساموها الخسف وجعلوها فى مواطىء أقدامهم » (٣) .

ان هذا الحدث مثار دهشة وعجب ، ولكن استغرابنا يشتد ، حينما لا نجد تفاصيله وافية فى بطون التاريخ ، اننا لا نكاد نعثر على أسماء هؤلاء الأعلام والأبطال الذين حققوا هذه المآثر ، وأدخلوا هذا الشعب الهمج فى حظيرة الاسلام ، مع ان هذه المأثرة لا تقل أهمية عن اى مأثرة اسلامية فى التاريخ ، ولهم فضل لا ينكر لا على رقاب المسلمين فحسب ، بل على الانسانية كلها ، الى أن يأذن الله لها بالفناء ، فانهم انقذوا العالم من دمار محتوم ، ووضعوه تحت رعاية شعب يؤمن بالله وحده ، ويدعو الى دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ان دولة جنكيزخان توزعت بعد وفاته الى أربعة فروع ، وبدأ الاسلام ينتشر فى هذه الفروع الأربعة ،

---

(١) وفى القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكا .
(Cahon p. 279).

(٢،٣) الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٦ — ٢٥٧ — ٢٥٨ .

وأصبح التتر يعتنقون الاسلام بجهود الخاقان ، حتى دخلوا فى ظرف مائة سنة فى دين الله ، وقد سرد إرنولد عدة أحداث تلقى الضوء على هذا الباب ، انه يحكى قصة شيوع الاسلام فى فرع جوجى خان الابن الأكبر لجنكيزخان ، الذى كان يحكم سيرا داردا ، الجزء الغربى من الدولة ، فيقول :

« وكان بركة خان (١٢٥٦ — ١٢٦٧ م) أول من اسلم من أمراء المغول : وكان رئيسا للقبيلة الذهبية فى روسيا بين سنتى ١٢٥٦ و ١٢٦٧ م (١) ، وقد قيل فى سبب اسلامه انه تلاقى يوما مع عير للتجار آتية من بخارى ، ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن عقائد الاسلام ، فشرحاها له شرحا مقنعا انتهى به الى اعتناق هذا الدين والاخلاص له ، وقد كاشف أصغر أخوته أول الأمر عن تغييره لدينه ، واعتناقه الاسلام ، وحبب اليه أن يحذو حذوه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين» (٢) .

« وقد دخل بركة خان فى حلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) سلطان المماليك فى

---

(١) ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختار الزاهدى . وضع لبركة خان فى سنة ١٢٦٠ م رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبى الدينية ، وتدحض ما ذكره المنكرون لهذه الرسالة .

(٢) الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٨ — ٢٥٩ (أبو الغازى ج ٢ — ص ١٨١) .

مصر ، الذى بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه ، فقد احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين ، ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحكم بين ملكهم وبين هولاكو فاتح بغداد ، وهم الذين كانوا ينضوون تحت لوائه ، فروا الى سورية ، حيث يممون منها شطر مصر ، وهناك استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم فى بلاط بيبرس ، الذى اقنعهم بصحة الدين الاسلامي واعتناقه (١) ، وكان بيبرس نفسه فى حرب مع هولاكو ، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية منذ أمد قريب ، وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتابا الى بركة خان ، وقد نقل هؤلاء عند عودتهم الى مصر ، ان لكل امير وأميرة فى بلاط بركة خان اماما ومؤذنا خاصا ، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن فى المدارس (٢) ، وكان من اثر هذه العلاقات الودية التى قامت بين بيبرس وبركة خان ، أن كثر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الاسلام دينا لهم »(٣).

انه يحكي قصة انتشار الاسلام فى الايلخانية الفرع الثانى لأسرة جنكيزخان ، ويقول :

(١) المقريزى (م) ج ١ ص ١٨٠ — ١٨١ ، ١٨٧ .

(٢) المقريزى (م) : ج ١ ص ١٢١٥ .

(٣) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٥٩ — ٢٦٠ (المقريزى) (م) ص ٢٢٢ .

« كان الاسلام أقل انتشارا فى بلاد الفرس حيث اسس هولاكو أسرة ايلخانات المغول ، ولكى يقوى على صد هجمات بركة خان وسلطان مصر ، تحالف هولاكو مع القوات المسيحية فى الشرق كملك ارمينية والصليبيين ، وكانت زوجته المحببة اليه مسيحية ، فعملت على استمالة زوجها نحو اخوانها فى الدين ، كما تزوج ابنه اباقاخان (١٢٦٥ — ١٢٨١ م) من ابنة امبراطور القسطنطينية ، وقد طمع المسيحيون ، فعلقوا الآمال على اعتناق اباقا خان المسيحية ، ولكن الأيام اظهرت أن تلك الآمال لم تكن الا سرابا خادعا ، وكان اخوه تكودار أحمد (١) ، الذى اعتلى العرش من بعده ، أول ايلخانات المغول الذين اعتنقوا الاسلام فى فارس ، وقد شب على المسيحية ، لأنه كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحي من معاصريه (٢) ، « تعمد فى صباه وتسمى باسم نقولا ولكنه دان بالاسلام عندما بلغ سن الرشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفا بهم » ، واصبح مسلما دينا ، ولما ارتد عن المسيحية ، رغب فى أن يسمى محمد خان ، وبذل قصاراه فى تحويل كافة التتار الى دين محمد وعقائده ، وقد بعث تكودار أحمد بنبأ اسلامه الى سلطان المماليك فى مصر (قلاوون) فى

(١) أوتيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة ، وقد سمى أحمد بعد اعتناقه الاسلام .

(٢) (Hayton. Ramusio, Tom II p. 60, C.)

ذلك الكتاب : « الى سلطان مصر ، أما بعد ، فان الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة ، الى الاقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، بصدق نبوته وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبريته (من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) (١) ، فلم نزل نميل الى اعلاء كلمة الدين واصلاح أمور الاسلام والمسلمين ، الى أن أفضى الينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبة الملك ، فأضفى علينا من جلابيب الطافه ولطائفه ، ما حقق به آمالنا فى جزيل آلائه وعوارفه ، وجلى هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها الينا ، فاجتمع عندنا فى قوريليان Qurilty على الأصح) المبارك ــ وهو المجتمع الذى تقدح فيه الآراء ــ جميع الاخوان والأولاد والأمراء الكبراء ، ومقدمو العساكر وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير ، فى انفاذ الجم الغفير من عساكرنا التى ضاقت الأرض برحبها من كثرتها ، وامتلأت الأرض رعبا من عظيم صولتها وشديد بطشها ، الى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها صم الأطواد ، وعزمة تلين لها الصم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم ، واجتمعت أهواؤهم عليه ،

---

(١) سورة ٦ : آية ١٢٥ .

فوجدناه مخالفا لما كان فى ضميرنا من اقتفاء الخير العام، الذى هو عبارة عن تقوية شعار الاسلام ، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا الا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء ، وتجرى به فى الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون فى سائر الأمصار فى مهاد الشفقة والاحسان ، تعظيما لأمر الله وشفقة على خلق الله ، فالهمنا الله تعالى اطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتن الثائرة ، وعلام من أشار بذلك الرأى بما أرشدنا اليه : من تقديم ما يرجى به من شفاء مزاج العالم من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، واننا لا نحب المسارعة الى هز النصال للنضال ، الا بعد ايضاح المحجة ، ولا نبادر لها الا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة ، وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعى الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح ، اذ كان الشيخ قدوة العارفين (كمال الدين عبد الرحمن) ، الذى هو نعم العون لنا فى أمور الدين ، فأرسلناه رحمة من الله لمن (لبى) دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه ، وأنقذنا أقضى القضاة قطب (الملة) والدين ، والأتابك بهاء الدين ، اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ، ليعرفوهم طريقتنا ، ويتحقق عندهم ما ينطوى عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا ، وبينا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة ، وأن الاسلام يجب ما قبله ، وانه تعالى ألقى فى قلوبنا أن نتبع الحق وأهله .. فان تطلعت نفوس الى دليل

تستحكم بسببه دواعي الاعتماد ، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ، فلينظروا الى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره ، وعم أثره ، فانا ابتدأنا بتوفيق الله باعلاء أعلام الدين واظهاره ، فى ايراد كل أمر واصداره ، تقديما لناموس الشرع المحمدى ، على مقتضى قانون العدل الأحمدى اجلالا وتعظيما ، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف ، وقابلناه بالصفح ، وقلنا : عفا الله عما سلف ، وتقدمنا باصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد ذو المدارس ، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس ، وايصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة الى مستحقيها بشروط واقفيها .. وامرنا بتعظيم امر الحجاج ، وتجهيز وفدها وتأمين سبلها ، وتيسير قوافلها ، وانا أطلقنا سبيل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم » ، وهو يلتمس محالفة سلطان مصر « بحيث تعمر تلك الممالك وتلك البلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتحل العامة أرض الهوينى ، وتخلص رقاب المسلمين من اغلال الذل والهوان (١) * .

(١) وصاف الحضرة ص (٢٣١ – ٢٣٤) .

* وقد ورد هذا الكتاب ايضا فى القلقشندى : صبح الاعشى ج ١ ص ٦٥ – ٦٨ ، وهو مؤرخ فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١ =

وان من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء الى أسمى عواطف الانسانية وحب الخير ، التى أعلنت عن نفسها فى تلك الوثيقة التاريخية التى كتبها تكودار احمد الى سلطان المماليك فى مصر ، والتى يدهش الانسان لصدورها من مثل ذلك المغولى .

وقد احفظ تكودار احمد واضطهاده ، المغول الذين كانوا شديدى الاتصال بهم برغم مخالفتهم فى الدين ، وشكوه الى قوبيلائى خان ، متهمين اياه بأنه خالف بذلك سنن أجداده ، وقد قامت فى وجهه ثورة على راسها ابن أخيه أرغون الذى دبر قتله ، ثم خلفه على العرش ، وفى أثناء حكم ارغون (١٢٨٤ – ١٢٩١ م) القصير ، استرد المسيحيون مكانتهم من جديد ، على حين لم يكن بد من أن يلقى المسلمون الاضطهاد ، فصرفوا عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية ، وحرم عليهم الظهور فى بلاطه (١) .

= (أغسطس سنة ١٢٨٢ م) ، وقد بعث به مع رسولين هما قطب الدين شيرازى وأتابك بهلوان ، وقد رد قلاوون على ايلخان المغول بكتاب مؤرخ اول رمضان من السنة نفسها (٣ ديسمبر سنة ١٢٨٣ م) ، وقد ورد هذا الكتاب فى القلقشندى (ج ٧ ص ٢٣٧ – ٢٤٢) .

(١) De Guignes, vol. III p.p. 263 - 5.

وقد ظل خلفاء تكودار احمد على وثنيتهم ، حتى دخل غازان (١٢٩٥ — ١٣٠٤ م) سابع الايلخانات وأعظمهم شأنا فى الدين الاسلامى فى سنة ١٢٩٥ م ، وجعله دين الدولة الرسمى فى فارس .

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الاسلام، وشيد عدة معابد للبوذية فى خراسان ، وكان يسر كثيرا بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون الى هذا الدين ، والذين كانوا قد وفدوا الى فارس فى جماعات كبيرة منذ بسط المغول سلطانهم فى هذه البلاد (١) ، ويظهر أن غازان كان بطبعه يميل الى تقليب نظره فى المسائل الدينية ، لأنه درس عقائد الأديان المختلفة المنتشرة فى زمانه (٢) ، وقد أيد رشيد الدين ، وزيره العالم ومؤرخ عصره ، بالبرهان صحة اعتقاده الاسلام ، الذى أخذ على عاتقه المحافظة على شعائره فى حماس وغيرة طوال عهده (٣) » .

ان ابن كثير نفسه ذكر اسلام غازان فى وقائع ٦٩٤ هـ بارتياح بالغ ، ويبدو منه — ويؤيده فى ذلك غيره من المؤرخين — ان الفضل فى ذلك يرجع الى الأمير

(١) 1 p. 18 p. 148.

(٢) C.·D. Ohsson, Tome IV p. 365.

(٣) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٦٠ — ٢٦٤ .

التركى الصالح توزون (١) فان ملك التتار أسلم بجهوده ، كتب ابن كثير فى وقائع ٦٩٤ هـ ، يقول :

« وفيها ملك التتار قازان بن أرغون بن أبغابن تولى بن جنكيزخان فأسلم ، وأظهر الاسلام على يد الأمير توزون رحمه الله ، ودخلت التتار أو أكثرهم فى الاسلام ، ونثر الذهب والفضة ، واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم اسلامه ، وتسمى بمحمود ، وشهد الجمعة والخطبة ، وخرب كنائس كثيرة ، وضرب عليهم الجزية ، ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد ، وظهرت السبح والهياكل مع التتار والحمد لله وحده (٢) » .

يقول ارنولد :

« أن أخاه أولجايتو Aljaytu الذى خلفه فى سنة ١٣٠٤م باسم محمد خدابنده (*) Khudabandah كان على المسيحية دين أمه ، وعمد باسم نيقولا ، على

(١) يسمه أرنولد وغيره من المؤرخين « نورزبيك » .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ — ص ٣٤٠ .

(*) ذكر ابن بطوطة ج ١ ص (١٤٣) أن اسمه مختلف فيه ، وقد قيل خدا (بضم الخاء) ومعناها بالفارسية اسم الله وبنده ومعناها غلام أو عبد ، وقيل خربنده بفتح الخاء ومعناها بالفارسية الحمار وبنده ، معناها غلام أو عبد . فيكون عبد الله ، أو غلام =

أنه لم يلبث أن أسلم بعد موت أمه ، وهو لا يزال شابا فى مقتبل العمر ، وذلك بتأثير زوجته (١) ، ويذكر

=الحمار ، وقد قيل أن سبب تسميته بهذا الاسم الاخير، أن التتار يسمون الطفل باسم أول داخل الى البيت عند ولادته ، فلما ولد كان أول داخل الزمال (الزمال صاحب الزاملة ما يحمل عليه من الحيوان ، ولعله يريد هنا الحمار فسمي خربنده ، وذكر براون أن غازان لما تولى فر أولجايتو وظل مشردا يرعى الحمير فى اقليم كرمان هرمز ، ولذلك أطلق عليه اسم خربنده او راعى الحمير ، وقيل أيضا أن أبوى الطفل كانا يطلقان عليه اسما قبيحا حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد ، ولذلك سمي خربنده كما يسمى العرب أبناءهم بفهر وكلب وصخر ومعاوية ونحو ذلك تفاؤلا بأن يكون الولد فى كبره صخرا أو كلبا على عدوه .

وقال ابن الوردى (تاريخ الوردى ص ٢٦٤) أن خربنده اسمه خدابنده ، وان ملكه شمل بلاد العراق وخراسان والعراق العجمى وآذربيجان وديار بكر .

Hammer-Purgstall . Geschichte Der Ilchanen vol. II p. 182

(١) لا يبعد أن تكون سبايا الاسلام قد قمن فى تحويل المغول الى الاسلام ، ويظهر أن المرأة شغلت مركزا من مراكز الشرف والكرامة بين المغول ويمكن أن نأتى بأمثلة كثيرة تؤيد أنه كان لها أثر ظاهر فى الشئون السياسية ، وقد تصدينا من قبل لذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء فى أزواجهن فى المسائل الدينية .

ابن بطوطة (١) ، ان سيرة ذلك الأمير ، كان لها أثر كبير فى نفوس المغول ، ومن ذلك العهد غدا الاسلام الدين السائد فى دولة ايلخانات فارس (٢)

الفرع الثالث من هذه الأسرة كان يحكم البلاد المتوسطة ، وكان مؤسسها جغطائى بن جنكيزخان .

يقول أرنولد :

« وان ما لدينا من المعلومات عن تقدم الاسلام وانتشاره فى امبراطورية المغول الوسطى ، التى كانت من نصيب جغطائى ، لا يزال ضئيلا ، وكان كثير من أعقاب هذه الأسرة يستعينون فى دولتهم بوزير من المسلمين على الرغم من انه لم يبد أى ميل الى الاسلام ، وقد ضيق جغطائى على رعاياه من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج ، التى ضيقت على شعائرهم الدينية ، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء ، ويذكر الجوزجانى أن جغطائى هذا كان ألد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة ، وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب فى أن ينطق أحد بكلمة مسلم فى حضرته ، اللهم الا اذا

---

(١) ابن بطوطة — ص ٥٧ .

(٢) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

اريد بها التحقير والحط من شـأنها (١) ، وقد ربت ارغنة Orghana زوجة قراهولاكو Qara-Hulagu حفيد جغطائى وخليفته ، ابنها على الاسلام ، وتقدم باسم مبارك شاه فى سنة ١٢٦٤ م مطالبا بعرش خاقانية جغطائى ، الذى كان مثار النزاع بين أمراء المغول ، ولكن سرعان ما خلعه ابن عمه براق خان Buraq Khan ، ويظهر أنه لم يكن لاسلامه اى اثر بين المغول ، فاننا لو رجعنا فى الواقع الى أسماء ابنائه ، لا نجد أحدا منهم قد دخل فى دين أبيه (٢) ، وقد قيل ان براق خان نفسه « قد ادركته البركة بتلقيه نور العقيدة » قبل موته فى سنة ١٢٧٠ م بأيام قليلة ، وانه تسمى باسم السلطان غياث الدين (٣) ، الا أنه دفن حسب طقوس المغول القديمة ولم يدفن وفق شعائر الدين الاسلامى ، وأن من أسلموا فى عهده ارتدوا الى وثنيتهم الأولى ، ولم يتم انتشار الاسلام بين المغول فى مملكة جغطائى الا فى القرن التالى لاسلام مبارك خان ، ذلك على اثر اسلام طرما شيرين Tarmashirin حوالى سنة ١٣٢٦ م ، وقد ظل المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم متمسكين فى هذه المرة بدينهم الجديد ، وعلى الرغم من ذلك ، لم يتأصل الميل الى

(١) الجوزجانى ص ٣٨١ — ٣٩٧ .
(٢) رشيد الدين ١٧٣ — ٤ ، ١٨٨ .
(٣) أبو الغازى ج ٢ ص ١٥٩ .

الاسلام بعد فى نفوس المغول ، فان بوزن Buzan الذى كان خان المغول فى السنين العشر التالية (ولو أن صحة هذا التاريخ غير محققة) ، لم يلبث ان طرد طرما شيرين من العرش واضطهد المسلمين (١) ، على اننا لم نسمع من ظهور أول ملك مسلم فى كاشغر الا بعد سنين قليلة ، وكان ضعف أسرة جغطائى قد اتاح لهذه المملكة ان تستقل بحكم هذه البلاد ، ويقول بعض المؤرخين ان اسلام تغلق تيمور خان Tuqluq Timur Khan (١٣٤٧ — ١٣٦٣ م) ملك كاشغر ، كان على يد رجل من أهل الورع والتقوى فى مدينة بخارى ، يقال له الشيخ جمال الدين ، وكان معه جماعة من التجار ، وكانوا قد اعتدوا على الأراضى التى خصصها ذلك الأمير للصيد ، فأمر بأن توثق ايديهم وأرجلهم ، وأن يمثلوا بين يديه ، ثم سألهم فى غضب : كيف جرؤوا على دخول هذه الأرض ، فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ، ولا يعلمون أنهم يجوسون أرضا محرمة ، ولما علم الأمير أنهم من الفرس ، قال : ان الكلب أغلى من أى فارسى ، فأجاب الشيخ : « نعم ! قد كنا أخس من الكلب ، وابخس ثمنا منه لو أننا لم ندن بالدين الحق » ولما راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يقدم اليه ذلك الفارسى الجسور عند عودته من الصيد ، ولما خلا به سأله ماذا يعنى بهذه الكلمات ،

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٣ — ص ٤٧ .

وما ذلك الدين ؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الاسلام فى غيرة وحماس ، انفطر لهما قلب الأمير حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع ، وصور له الكفر بصورة مروعة اقتنع معها بضلال معتقداته وفسادها ، وقال : « ولكنى اذا اعتنقت الاسلام الآن ، فلن يكون من السهل ان اهدى رعاياى الى الصراط المستقيم فلتمهلنى قليلا ، فاذا ما آلت الى مملكة اجدادى ، فعد الى » ، وذلك ان امبراطورية جغطائى انقسمت فى ذلك الوقت الى امارات صغيرة ، وظلت علي ذلك سنين طويلة حتى نجح تغلق تيمور Tuqluq Timur فى توحيد الامبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما كانت من قبل ، وفى هذه الأثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد الى بلده حيث مرض مرضا شديدا ، فلما اشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين : « سيصبح تغلق تيمور يوما ما ملكا عظيما ، فلا تنس أن تذهب اليه وتقرئه منى السلام ، ولا تخش أن تذكره بوعده الذى قطعه لى » ولم يلبث رشيد الدين الا سنين قليلة حتى ذهب الى معسكر الخان ، وكان قد استرد عرش امبراطورية آبائه ، تنفيذا لوصية أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بالمثول بين يدى الخان برغم ما بذله من جهود ، وأخيرا لجأ الى هذه الحيلة الطريفة ، ففى ذات يوم اخذ يؤذن فى الصباح المبكر على مقربة من فسطاط الخان ، فأقلق ذلك الصوت نوم الخان وأثار غضبه ، فأمر باحضاره ومثوله بين يديه ، وهناك أدى

رشيد الدين رسالة أبيه ، ولم ينس تغلق تيمور وعده وقال : « حقا ! ما زلت اذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائى ، ولكن الشخص الذى قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن فأنت على الرحب والسعة » ، ثم أقر بالشهادتين ، وأصبح مسلما منذ ذلك الحين ، « واشرقت شمس الاسلام ومحت بنورها ظلام الكفر .. .ولكى ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق‌تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الأمراء واحدا بعد واحد ، ويعرض عليهم الاسلام ، فمن قبله جوزى الجزاء الحسن ، ومن أباه ذبح كما يذبح الوثنيون وعباد الأصنام (١) » .

أما الفرع الرابع الذى ينتمى الى اجتائى خان والذى برز فيه من الملوك والفاتحين امثال منجوخان ، وقوبيلائى خان ، والذى كان يحكم الجزء الشرقى من امبراطورية التتر ، فقد يقول فيه ارنولد :

« ولابد أن يكون هناك كثير من انصار النبى قد انتشروا فى طول امبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين فى طى الخفاء لجذب الكفار الى حظيرة الاسلام ، ففى عهد اجتائى (١٢٢٩ — ١٢٤١ م) نقرأ عن اسلام بوذى يدعى Kurguz وكان حاكما على بلاد الفرس من قبل المغول (٢) ، وفى عهد تيمور خان (١٢٢٣ —

(١) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٦٥ — ٢٦٧ .

(٢) C. D. Ohsson, vol. III 121.

١٢٢٨ م) كان آنندا Ananda حفيد قوبيلائى (١٢٥٧ – ١٢٩٤ م) وأمير كان سو مسلما متحمسا كما دفع كثيرا من أهل تانجوت Tangut وعددا كبيرا من الجنود الذين كانوا تحت إمرته الى اعتناق هذا الدين ، وعلى الرغم من استدعائه الى بلاط تيمور وبذل الجهد فى ارتداده الى البوذية ، أبى الا التمسك بدينه الجديد ، فالقى به فى غياهب السجن ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة اهالى تانجوت الذين كانوا شديدى التعلق به » (١) .

وهكذا دخل هذا الشعب (الذى دوخ العالم الاسلامى كله ، وداس اطرافه بأقدامه ونعال خيوله ، والذى لم تتماسك امامه أى قوة) فى دين الله الاسلام فى بضع سنين ، وبدت هذه الحقيقة مرة أخرى ، واضحة جلية ، ان الاسلام لا يزال يملك اكبر نفوذ ، ويتمتع بأغرب موهبة فى تسخير الأرواح وكسب الأنصار والأصدقاء ، ان التتر لم يسلموا رسميا فحسب ، بل برز فيهم عدد كبير من العلماء والفقهاء والمجاهدين والدعاة والربانيين ، وأهل الصدق واليقين ، وأدوا دورهم الثمين فى حماية حمى الاسلام فى ظروف دقيقة ولحظات عصيبة من التاريخ .

---

(١) الدعوة الى الاسلام – ص ٢٥٨ (رشيد الدين ص ٦٠٠ – ٦٠٢) .